

حرب الخليج

عندما يجعل الاعلام الغربي من الموت لعبة ؟!

رابع بومرخوفة

أستاذ مكلف بالدروس بمعهد علوم
الاعلام والاتصال - جامعة الجزائر

عندما نعود الى المراجع الكلاسيكية المتعلقة بالاعلام في النظام الليبرالي، نجد أن كل المنظرين الذين ساهموا في وضع المبادئ الأساسية لنظرية الحرية (ابتداء من جون لوك من القرن السابع عشر ومرويا بجون جفرسون من القرن الثامن عشر وانتهاء بجون ستوارت ميل من القرن التاسع عشر. قد اتفقوا بالاجماع على مبدئين أساسيين لنظرية الاعلام والاتصال للنظام الليبرالي وهما :

1 - حرية التعبير كحق طبيعي لكل فرد . .

2 - رفض الرقابة رفضا مطلقا .

لكن ممارسات وسائل الاعلام والاتصال في تغطيتها لحرب الخليج إنخرفت تماما عن هاتين القاعدتين الأساسيتين . اذا اتسم نشاطها باللاموضوعية وتزوير الحقائق وهو تعميم إعلامي خطير يضلل الرأي العام ويحرمه من حقه في الوصول الى الأخبار الصحيحة التي تمكنه من اتخاذ موقف سليم من حرب الخليج . كما اتسم نشاط الاعلام هذا بالخضوع التام الى رقابة البنتاغون والاحتكار الشامل لقناة «سي.أن.أن» .

وهكذا راحت تصنع وسائل الاعلام والاتصال الغربية من الحرب الخطيرة والمدمرة الدائرة في الخليج (في الأسبور الأول) مجالا لقضاء الوقت والاستمتاع والنشوة والاعتزاز بتفوق الأناء الغربي .

فالنقل الاستعراضي لوقائع الحرب (صور وألوان وأضواء وليزر) والتركيز المسهب على جوانبها التكنولوجية . يبعد المتلقي لرسالة الاعلام والاتصال عن الأحاسيس بحرب الخليج كإساءة إنسانية حقيقية ملموسة (موت وجروح ودموع ومعاناة ودمار)

هذا النقل الاستعراضي لوقائع حرب الخليج يوجه المتلقي الغربي للاعلام الى التعامل مع هذه المأساة كوقائع مجردة تتصل بعلم الخيال ، كأى سيناريو ولعبة من لعب الكمبيوتر .

وهكذا تصنع وسائل الاعلام والاتصال الغربية من الصوت والدمار المسلطين على شعب العراق ومن المعاناة المعنوية للأمة العربية المتدمرة من الحرب النفسية التي يسلطها الاعلام الغربي تصنع من هذا كله واحات للحلم والبطولة .

أناء التفوق تتحول لديه في المجال الذي يصنعه الاعلام والاتصال الغربي . كل المعالم الحضارية والأثرية العمرانية ، التي تمثل تاريخ وجهد وخيال وإبداع الشعب العراقي كل هذا يتحول في المجال الاعلامي المصنع الى شوائب ، ورموز ازلتها واجب ، حتى وان تناقض هذا مع اتفاقية لاهاي سنة 1954 تحت اشراف اليونسكو والتي تهدف الى حماية المعالم الأثرية في حالة اندلاع الحروب ، لأن هذه «الشوائب» في منطق الاعلام الغربي تقاوم ولا تنسجم مع مشروع نظام العالم والحياة اللذين يسعى الغرب بقيادة أمريكا الى بسطها في الكون .

مأساة الغرب وغرب المأساة :

نفس وسائل الاعلام والاتصال التي تعرضنا أعلاه الى كيفية تعاملها مع حرب الحلفاء على العرب (الحرب العسكرية على العراق والاعلامية على كل العرب) تصنع من القلق على مصير فرد واحد من أفراد المجتمع الغربي مأساة تفوق في عنفها وحرقتها مأساة هيرودوت وهاملت ؟ .

بينما يتم اتفاق مليار دولار يوميا على حرب الخليج حسب المصادر الغربية نفسها (نصف هذه النفقات من عائدات بترول العرب بالخليج) يموت يوميا من الجوع والمرض آلاف البشر في افريقيا وآسيا . وتبكي الممثلة الكبيرة بريجيت باردو في باريس حزنا على كلب أسيئت معاملته ويقتل بالرصاص عشرات الأطفال المشردين في البرازيل تصطادهم فرق الموت .

وتحصد العنصرية في الغرب عشرات الضحايا كل سنة لكن اعلام لعبة الموت والمأساة يركن الى الصمت .

ان الشارع العربي قد برهن بما لا يدع أي مجال للشك بأن حرب الحلفاء على العراق هي حرب على جميع العرب . انه خطأ خطير في تقييم الموقف بعد أسبوع من حرب الخليج اذا أعتقد الحلفاء أو تصوروا أن الشعوب العربية ستسمح في انتصارها المعنوي والسياسي العظيم الذي حققته من خلال صمود العراق ، أن الشعوب العربية ستدافع بأعلى ما عندها للاحتفاظ بهذا النصر ، وان الحل الممكن أمام الحلفاء هو مصلحة هذه الأمة بالبحث معها عن حل سلمي لمشكل الشرق الأوسط وتجنب المنطقة بكاملها كارثة خطيرة على الإنسان والبيئة .

حذار ، ان شعوب الأمة العربية لم تتجمع لها في تاريخها القريب والبعيد من الأسباب التي تجعلها تقف صفا واحد كما هو الشأن الآن .

فالاحتلال الاسرائيلي للأراضي الفلسطينية تحياه هذه الشعوب بمرارة منذ 1948 ويزيد من هذه المرارة تعنت اسرائيل ومواصلتها لسياسة القتل والتعذيب والسجن والتهجير لأبناء الشعب الفلسطيني . انها تحيا بمرارة أيضا هزائم الجيوش العربية منذ 1948 الى 1967 أمام الآلة العسكرية الاسرائيلية المدعومة من الآلة العسكرية للحلف الأطلسي .

انها تحيا بمرارة هدر الثروات العربية واستفادة الغرب والكيان الصهيوني منها بينما شعوب الأمة العربية تعاني يوميا من مشقة الحياة وصعوبتها لقلة الأموال المسخرة للتنمية .

ان وجود القوات الأجنبية على أرض الحجاز أرض المقدسات العربية وان التحدي الأمريكي الغربي (تحت غطاء قرارات مجلس الأمن) للشعب العراقي وفرضه حصارا اقتصاديا لم يسبق له مثيل في تاريخنا المعاصر . وهجمة القتل الجماعي الشرسة للمدنيين العزل من أطفال ونساء وشيوخ وشباب ، انها جميعا أسباب ومحفزات للشعوب العربية لا للتضامن مع العراق فقط بل لتقف مباشرة وجها لوجه أمام التحدي الأمريكي الغربي .

انه ليس من المستبعد جدا أن ترفض الجيوش العربية والإسلامية ، الموجودة ضمن القوات الغربية المتحالفة في الخليج توجيهه نيران أسلحتها نحو الجنود العرب وتختار الشهادة والشرف وتصوب بنادقها الى العساكر الغربي . وليس مستحيلا أن يثور الدم

في عروق الأحرار من الجيش والشعب المصري والشعب والجيش السوري . وتغلق قناة السويس وتبدأ معركة التحرير العربية الكبرى .

وليس مستبعداً أن تقوم الجماهير العربية في مناطق عديدة من الوطن العربي باضرام النار في أبار البترول والغاز ومنع وصوله الى البلدان المتحالفة المعتدية .

ان الأمة العربية أصبحت تعي وزنها الكبير الذي تستمد من ثقافتها وحضارتها . ومن مساحاتها الجغرافية وموقعها الاستراتيجي براً وبحراً من ثرواتها المادية والبشرية وبالتالي فهي لم تعد تقبل أن تظل كما هي الآن ضعيفة بفعل التشيت والاضاع . لقد استخلصت هذه الأمة الكثير من الدروس الحربية والسياسية والأيدولوجية على مدى عشرات السنين الماضية . لقد آن الأوان للبدء في بناء الدار الكبيرة القادرة على ابواء أفراد العائلة المشتتين في الخيام والأكوخ والمغاور والمقابر والمهجر .

قال لي أحد المواطنين البسطاء (سائق سيارة أجرة) انه يتابع الأحداث الخليجية يوميا بواسطة الراديو ، تم هذه المتابعة من خلال ما لا يقل عن خمس محطات اذاعية علمية : الاذاعة البريطانية صوت أمريكا ، الاذاعة الفرنسية الدولية ، اذاعة موسكو ، اذاعة ألمانية يقول : «ان المعلقين والمحللين لازالوا ينظرون الى الأزمة على أنها أزمة بين العراق والشرعية الدولية .

ونحن نعلم أن أمريكا تريد أن تسيطر على البترول وأن تؤمن التفوق العسكري لاسرائيل في المنطقة . ويضيف محدثي : يقول المعلقون أن العراق مصيره الهزيمة نظرا لتفوق القوة ، الأمية ، بامتلاكها أسلحة متطورة . ونظرا أيضا للكفاءة القتالية العالية التي يتمتع بها أفراد القوات «الأمية» ونظر إليّ محدثي قائلا : ألم يهزم جيش التحرير الوطني على قلة امكانياته الجيش الفرنسي المتفوق عددا والمدمج بأحدث الأسلحة .

وواصل حديثه : يقول هؤلاء المعلقون .

حتى لو حظي العراق بتضامن ودعم الجماهير العربية فان تدريبها وتزويدها بالأسلحة حتى للقيام بعمليات فدائية فقط خلف جبهة القتال فهذا الأمر يتطلب وقتا وسرعة الحرب لا تمنح العراق هذا الوقت . وهنا نظر الي هذا المواطن البسيط محركا رأسه يمينا وشمالا (يعبر بذلك عن التعجب) ثم قال : الفدائيون ليسوا في حاجة لا الى تدريب ولا حتى الى سلاح . وأضاف عن طريق (أعواد الثقب) النار يمكن

الحاق أضرار خطيرة بالمؤسسات الاقتصادية والمالية والحربية للعدو . سيدهبش الخبراء لفعالية هذه العمليات الفدائية ولفداحة الخسائر التي ستلحقها بمؤسسات العدو . ثم أضاف يقول لماذا الأسلحة فنحن لا نريد ارتكاب جرائم ضد المواطنين الأبرياء . على عكس ما يفعله الحلفاء حاليا بارتكاب جرائم حرب ضد المدنيين في العراق . فالحرب اقتصادية مالية . والوجود الغربي في الخليج من أجل أبار البترول . فلنحرق نحن بدورنا مؤسساتهم الاقتصادية والمالية والحربية ونسعى ما أمكن أن لا تمس نارنا الأبرياء انتهى كلام محدثي .

يجب التفكير والعمل مجدية :

أي مصير ينتظر الجاليات العربية المقيمة والعاملة في البلدان الغربية ؟ لقد بدأنا نسمح هنا وهناك تصريحات بعض المسؤولين في هذه البلدان تعلن عن اتخاذها التدابير والاحتياطات لتطويق ردود فعل هذه الجاليات ومنعها من الحاق أضرار بالمجتمع الذي يقيمون فيه .

كيف سيتم تطويق هذه الجاليات حتى لا يكون لها ردود أفعال يا ترى ؟

هل بتقييد حرياتهم وحقوقهم في العمل والتنقل ؟

هل يفرض حظر التجول عليهم ومنعهم من دخول بعض المؤسسات والمصالح

الخ ... ؟

أم بمجمعهم داخل محتشدات كما فعل النازيون مع اليهود ابان الحرب العالمية

الثانية ؟

كيف ستكون معاملة الموقوفين في المراكز «الوقائية» ألا يمكن أن يصبحوا رهينة وكبش فداء يدفعون ثمن كل ضربة على جبهة القتال أو خلفها على الدبلوماسية العربية مسؤولية بذل قصارى جهدها لضمان حقوق وأمن وممتلكات جالياتنا في المهجر .

الاعلام الغربي بين صدق النظرية - وزيف الممارسة

تستقطب حرب الحلفاء العدوانية على العراق ، اهتمام المجتمع الدولي قاطبة ان كان ذلك بدرجات متفاوتة ومن زوايا ليست دائما مشتركة فالشعوب العربية

الاسلامية تنظر الى هذه الحرب من زواياها المختلفة : العسكرية ، السياسية ، الاقتصادية ، الاعلامية ، انها حربا تحريرية حضارية .

أما بالنسبة للمجتمعات الأخرى ، حيث تستقطب حرب الخليج قطاعات واسعة منها ، فهي تنظر الى حرب الحلفاء العدوانية على العراق من زوايا مصالحها أو اهتماماتها الخاصة قد تتم هذه النظرة من زاوية واحدة أو عدة زوايا ، وقد يكون الاهتمام منصبا على الانعكاسات الاقتصادية لهذه الحرب . أو على نتائجها السلبية على البيئة أو جوانبها القانونية والانسانية أو على التعقيدات الجيوسياسية التي ستفرزها هذه الحرب في منطقة الشرق الأوسط والعالم برمته .

وإذا اختلفت الزوايا التي ينظر منها كل طرف لهذه الحرب . فان منظار تتبع هذه الحرب يكاد يكون واحدا للجميع ويتمثل في الاعلام والاتصال الغربي المرتكز على امكانيات هائلة وتقنيات مطورة المتكررة لتغطية أحداث هذه الحرب - الجريئة .

ان ما نشاهده على شاشاتنا الصغيرة وما نقرأه على أعمدة الصحف . وما توصله الى مسامعنا محطات الراديو من أخبار وتعليق . وتحاليل وأراء حول حرب الخليج . انه لا يكاد يصدق لما يتسم به هذا الاتصال من تزييف للحقائق وخروج صريح عن القواعد النظرية والأخلاقية التي تضبط مهنة الاعلام والاتصال في المجتمع .

اننا كاعلاميين لا نكاد نصدق هذا الانقصام الخطير في العلاقة العضوية التي تربط موضوعيا النظرية الاعلامية الأكاديمية بالممارسة الميدانية اليومية الاجتماعية .

لقد تعرضنا فيما سبق وتحت عنوان لعبة الموت . الى الاعلام في النظام الليبرالي وبالتحديد الى نظرية الحرية ، والى خروج ممارسات الاعلام الغربي في تعامله مع أحداث حرب الخليج عن مبادئ وقواعد نظرية الحرية الملزمة لأي اعلام حر موضوعي سليم .

وستعرض هنا الى نظرية المسؤولية الاجتماعية للاعلام والاتصال في النظام الليبرالي ليسهل على القارئ الحكم بنفسه وعقد المقارنة بين ما تضعه هذه النظرية الحديثة من مبادئ وقواعد تنظم وتضبط الممارسة وتحدد الأهداف والوظائف الاجتماعية وما تقدمه لنا حاليا وسائل الاعلام الغربية في تغطيتها لأحداث حرب الخليج الخطيرة من وسائل تخالف شكلا ومضمونا مبادئ هذه النظرية .

ظهرت نظرية المسؤولية الاجتماعية في مطلع هذا القرن في أنكلترا وأمريكا .
عندما بدأ جماعة من المفكرين والنقاد يضعون علامات استفهام على صحة نظرية
الحرية في مجتمع ظهر فيه تركز ضخم لرؤوس الأموال بين أيدي قليلة وظهور شركات
احتكارية ذات امتدادات عالمية وحيث أصبح الاعلام يخضع بصورة أو بأخرى الى
نفوذ وتوجيه هذين العملاقين . وهذا الوضع الجديد الذي آل إليه الاعلام في المجتمع
هو الذي دفع أصحاب هذه النظرية الى طرح سؤالهم الكبير «اذا كان من الواجب
وضع حدود للحرية» ؟

وكانت اجاباتهم أن الحرية المطلقة تشكل خطرا كبيرا على المجتمع . وأن الحرية
الصحيحة هي المحدودة بمحدود القانون من جهة وحدود الصالح العام من جهة ثانية(☆)
معاناة ربط الحرية بالمسؤولية الاجتماعية .

ان الحرية في نظر مؤسس نظرية المسؤولية الاجتماعية هي حق وواجب ونظام
ومسؤولية في وقت واحد . لقد تمت صياغة قواعد ومبادئ نظرية المسؤولية
الاجتماعية سنة 1947 من قبل كبار رجال الاعلام الأمريكيين والانجليز . ولذلك
سميت بالنظرية الأنجلو أمريكية . وقد صيغت تحت عنوان : «صحافة حرة
مسؤولة» .

وقد حددت هذه النظرية نشاط الاعلام والاتصال خمسة وظائف أساسية هي :

(1) الحقيقة والمعنى في الخبر وهذا يعني الصدق ، الشمولية ، الدقة ، والسياق الذي
يعطي للخبر معناه الحقيقي . الامتناع عن أي شكل من أشكال الكذب . التمييز
والفصل بين الوقائع والآراء .

(2) وسائل الاعلام هي منبر للتبادل والتعليق والنقد أي نقل وتوصيل رسائل مختلف
الاتجاهات في المجتمع . اتفقت أو اختلفت فيما بينها أو بينها وبين المؤسسة الاعلامية .

(3) أن يشمل نشاط وسائل الاعلام والاتصال وبصورة متساوية حاجات
واهتمامات كل الفئات في المجتمع .

(4) عرض وتوضيح أهداف المجتمع وقيمه دون تحوير للحقائق . دون اشارة
للعواطف . تغطية كل الأحداث بموضوعية .

(5) توفير أكبر قدر ممكن من المعلومات عن حياة المجتمع اليومية حتى وان كانت
هذه المعلومات تشغل كلية وبصورة دائمة من قبل المواطنين .

بمعنى الابتعاد عن أي شكل من أشكال الرقابة أو إخفاء المعلومات (☆) .
ان تأثير نظرية المسؤولية الاجتماعية على الوعي في أوروبا وأمريكا قد دفع الى انشاء مجالس عليا للاعلام والاتصال في جميع هذه البلدان ابتداء من الأربعينات .
تقوم هذه المجالس بدور الوسيط بين وسائل الاعلام والجمهور فهي اذا هيئة استشارية تقدم مشورتها لمثلي وسائل الاعلام حتى تقوم هذه الأخيرة بنشاطها بروح من الحرية والمسؤولية . كما تقوم بدور تعليمي اذ تشرح للمواطنين وتعرفهم بوسائل الاعلام والاتصال وبوظائفها المختلفة .

ونحن هنا نتساءل مع هذا العرض الموجز لهذه النظرية . هل هناك تطابق أو حتى تقارب بين مبادئ هذه النظرية وبين ممارسات وسائل الاعلام في تغطيتها للحرب الخليج الخطيرة وتعاملها معها ؟

اني لا أجيب على هذا السؤال ولكن أترك المهمة للقراء اذ يمكنهم أن يقارنوا بين المبادئ النظرية السلبية المذكورة أعلاه ، وبين الممارسات الزائفة فقط أشارك القراء في الاجابة على هذا السؤال الذي نطرحه الآن باجابة قالها منذ ما يزيد عن 20 سنة فرانك سناتون رئيس شبكة كلومبيا الاذاعية .

ان أي رئيس للولايات المتحدة الأمريكية استطاع استغلال الاذاعة والتلفزة بصورة مركزة مكنه ذلك من احراز انتصارات ساحقة على معارضيه ، ذلك أن كلمات الرئيس وأراؤه أصبحت قوة من طرف واحد بحيث أنها لا تمثل فقط أقوى صوت في البلاد وانما الصوت الوحيد الذي يتحدث عن وجهة نظر على مستوى الأمة . وهكذا يتعرض الجهاز الحساس (الاعلام) الذي يعمل على تنوير الرأي العام الى اختلال خطير في التوازن بدلا من تقويته ولا يصبح الرأي العام مطلعا وانما موجها وليس مستنيرا بل مغلوبا على أمره (☆) .

اننا نتساءل هنا لماذا سكوت مجالس الاعلام والاتصال في الغرب عن التجاوزات الخطيرة للاطار النظري والقانوني والأخلاقي المقترفة من قبل وسائل الاعلام الغربية .
فن المفروض أن هذه المجالس مسؤولة على مراقبة وسائل الاعلام لكي لا تتجاوز الاطار المحدود لها . اذ يقول الأستاذ ج . ادوارد جيرالد . من جامعة مينيسوتا . ان هذه المجالس هي هيئات تهدف الى ابعاد الضغوط الحكومية عن وسائل الاعلام والاتصال . اذ تعمل كحاجز بين وسائل الاعلام والجمهور وبين وسائل الاعلام

والحكومة وتسهر على تنظيم العلاقات بين هذه الأطراف الثلاثة(☆) .

ونحن نتساءل هنا على سكوت هذه المجالس التي تضم مفكرين ومثقفين وصحافيين كبار وقانونيين أم أنه حصل لهم ما حصل لمجلس الأمن اذ على الرغم من تجاوز قوات الحلفاء للطار المحدد لهم تحرير الكويت ، وانطلاقهم منذ بداية الحرب في ضرب أهداف مدنية تقع داخل عمق العراق . وتمادي هذه القوات منذ ثلاثة أسابيع في تدمير العراق والقتل الجماعي للمدنيين الأبرياء . فان مجلس الأمن لا زال لا يحرك ساكنا .

اننا نتساءل كما يتساءل الجمهور الغربي والعالمي الغاضب والذي عبر عن استنكاره لعدوان الحلفاء على العراق . بوسائل مختلفة ومنها مظاهراته العارمة . اننا نتساءل كيف تورطت وسائل الاعلام في هذه اللعبة القذرة التي حاكت خيوطها أطراف عسكرية سياسية فاشية رجعية صهيونية ، داست بنعالها الثقيلة حقوق الانسان والحرية والديمقراطية والكرامة البشرية لتحكم سيطرتها على ثروات الشعوب . وتفرض عليها بقوة الحديد والنار نظامها الدولي الجديد المزعم نظام الاستعمار الجديد .

المراجع :

- (☆☆☆☆) د . عبد اللطيف حمزة - الاعلام والدعاية - مطبعة المعارف بغداد . 1968 .
وليام ل . ريقرز وآخرون - وسائل الاعلام والمجتمع الحديث .
ترجمة د . ابراهيم امام دار المعرفة القاهرة 1975 .